بيـن القصـــرين

١

بين القصرين

نجيب محفوظ
الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

-١-

عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبِّه أو غيره ولكن بإيحاء من الرغبة التى تبيت عليها فتواظب على إيقاظها فى دقة وأمانة. وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الإحساس، حتى بادرها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها فهزت رأسها هزة خفيفة فتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس. لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت، فالطريق تحت حجرتُها لا ينام حتى مطلع الفجر، والأصوات المتقطعة هى التى تترامى إليها أول الليل من سمَّار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى التى تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر، فلا دليل تطمئن إليه إلا إحساسها الباطن - كأنه عقرب ساعة واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلَّمه.

هى العادة التى توقظها فى هذه الساعة، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية، أن تستيقظ فى منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام. وجلست فى الفراش بلا تردد لتتغلب على إغــراء النوم الدافىء وبَسْــملَت ثم انزلقت من تحت الغطاء إلى أرض الحجرة، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك

حتى بلغت الباب ففتحته، فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول فى الصالة، فدلفت منه وحملته وعادت به إلى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف به حاشية من الظلال، ثم وضعته على خوان قائم بإزاء الكنبة. وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية، إلا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازى وفراشها الكبير ذى العمد النحاسية الأربعة والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطّاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان. واتجهت المرأة إلى المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البنى منكمشًا متراجعًا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين، فمدت أصابعها إلى عقدته فحلّتها وسوّته على شعرها وعقدت طرفيه فى أناة وعناية، ومسحت براحتيها على صفحتى وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت فى الأربعين متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلىء فى حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب. أما وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيها نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى. وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة. واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت، ثم وقفت فى قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلافها المغلقة إلى الطريق.

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر إلى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد إلى الشمال، فبدا الطريق إلى يسارها ضيقًا ملتويًا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة، وتخف فى أسافله مما يلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبّات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل

السهر حتى مطلع الفجر، وإلى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا، فلا يلفت النظر به إلا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المرَدَة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة. منظر ألفتْه منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه، ولعلها لم تدر ما السَأم طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفا لوحدتها عهدًا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء إلى هذا الوجود، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير - بفنائه التِّرب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف - سواها، أكثرَ النهار والليل. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما وجدت نفسها، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام فى حجرة الفرن بالفناء تاركة إياها وحيدة فى دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة.

ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بإحكام، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعًا للشياطين، ثم تنتهى إلى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم، ولشد ما كانت تخاف الليل فى عهدها الأول بهذا البيت، فلم يغب عنها - هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس إنها لا تعيش وحدها فى البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها آوت إليها قبل أن تحمل هى إلى البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دبَّ إلى أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم، وما من مغيث

إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع إلى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها إلى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبًا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار فى نفسها المتهافتة من إشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء ، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم فى اليقظة والمنام بدرع من السوَر والأحجبة والرقا والتعاويذ ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته . ولم يكن غريبا وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه إلى صدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصًا حاضراً : «ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون» ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيراً واطمأنت لدرجة إلى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءاً قط فكانت إذا ترامى إليها حس طائف منهم قالت فى نبرات لا تخلو من دالة : «ألا تحترم عباد الرحمن ! . الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما» . ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب ، أجل كان مجرد وجوده بالبيت - صاحيًا أو نائما - كفيلاً ببث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، فى العام الأول من معاشرته ، أن تعلن نوعًا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة : «أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة ، وما عليك إلا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى إلى تأديبك» ، فتعلَّمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شىء - حتى معاشرة العفاريت - إلا أن يحمِّر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرَّها ، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقّة والاستبداد

والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبِّة المطيعة المستسلمة، ولم تأسف يومًا على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنها لتستعيد ذكريات حياتها فى أى وقت تشاء فلا يطالعها إلا الخير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق إلا ابتسامة رثاء. ألم تعاشر هذا الزوج بعلاَّته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناءهم قرة عينيها وبيتًا مترعًا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة.. بلى، أما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام وما امتدت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللهم إلا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه، فلا وجه للشكوى، ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتى ساعة الانتظار هذه، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار، أحبتها من أعماق قلبها، فضلا عن أنها استحالت جزءًا لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فإنها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبها على بعلها وتفانيها فى إسعاده. وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذاك الحدب. لهذا امتلأت ارتياحا وهى واقفة فى المشربية، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوابة حمام السلطان ورابعة إلى المآذن، أو تسرحه بين البيوت المتكأكئة على جانبى الطريق فى غير تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر الذى تحبه. هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدَّد مخاوفها لا يغير الليل منه إلا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيئ لأصواته جوًا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقًا وجلاء، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق فى حجرتها، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة،

ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور: «لله هؤلاء الناس. . حتى هذه الساعة يطلبون مزيداً من التعميرة»، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول: «ترى أين يكون سيدى الآن؟. . وماذا يفعل؟. . فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال». أجل قيل لها مرة إن رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أن تخلو حياته من نساء. يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها، فجعلت الأم تسكن من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام، ثم قالت لها: «لقد تزوجك بعد أن طلّق زوجته الأولى، وكان بوسعه أن يستردَّها لو شاء، أو أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجًا، فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة». ولو أن حديث أمها لم يُجْد مع حزنها وقت اشتداده إلا أنها مع الأيام سلَّمت بما فيه من حق ووجاهة، فليكن ما قيل لها حقًّا فلعله من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة، وليس من الهيِّن أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهمًا أو كذبًا. ووجدت أن موقفها من الغيرة، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئًا، فلم تهتد إلى وسيلة فى مقاومتها إلا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفاريت، مما تحتمل.

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السمَّار حتى ترامى إليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت «حنطوراً» يقترب وئيداً ومصباحاه يسطعان فى الظلام، فتنهدت فى ارتياح وغمغمت «أخيراً. .». ها هو «حنطور» أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب

البيت الكبير ثم يمضى كالعادة إلى الخرنفش حاملاً صاحبه ونفراً من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى، ووقف «الحنطور» أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول فى نبرات ضاحكة:

ـ أستودعكم الله . .

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنها تسمعه كل ليلة فى مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه ـ هى وأبناؤها ـ إلا الحزم والوقار والتزمت، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقَّة؟!. وكأن صاحب «الحنطور» أراد أن يمازحه فقال له:

ـ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة؟. قال إنه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة إلى بيته وهو لا يستحق أن يركب إلا حماراً.

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا إلى السكون ثم قال يجيبه:

ـ أما سمعت بماذا أجابته نفسه؟. . قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا.

وضجَّ الرجال ضاحكين مرة أخرى. ثم قال صاحب العربة:

ـ فلنؤجل الباقى إلى سهرة الغد.

وتحركت العربة إلى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجى حتى وقفت فى رأس السلم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مسترداً هيبته ووقاره، خالعاً مزاحه الذى لولا استراق السمع لظنَّته من مستحيل المستحيلات، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله.

ـ ٢ ـ

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ـ مساء الخير يا أمينة .

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ـ مساء الخير يا سيدى .

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه ، وبدا فى وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعًا جبَّة وقفطان فى أناقة وبحبحة دلَّتا على رفاهية ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه فى عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، إلا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل فى جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبَّة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت إليه ففكَّت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسنداً قذاله إلى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه ، ولما كشف قدمه اليمنى بدا أول عيب فى هذا الجسم الهائل

الجميل فى خنصره الذى تآكل من توالى الكشط بالموسى فى موضع كاللو مزمن. وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وإبريق، فوضعت السطت عند قدمى الرجل ووقفت والإبريق فى يدها على أهبة الاستعداد، فاستوى السيد فى جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلا، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به إلى الحمام. كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات فى البيت الكبير، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال، بل فى سرور وانشراح، وبنفس الحماس الذى يستفزها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم «النحلة» لدأبها ونشاطها المتواصلين.

وعادت إلى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها أمام الكنبة وتربعت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى أن تجلس إلى جانبه تأدبا. ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها إلى الكلام فتتكلم، وتراخى ظهر السيد إلى مسند الكنبة، وبدا عقب سهرته الطويلة متعباً فثقل جفناه اللذان جرى فى أطرافهما احمرار طارىء من أثر الشرب، وجعل يزفر أنفاساً ثقيلة مخمورة. ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة، إلى إفراط فى الشرب حتى السكر، إلا أنه لم يكن ليقرر العودة إلى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يحب أن يبدو به فى بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه فى أعقاب سهرته، ولكنها لم تلمس من آثار الشرب إلا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذاً مريباً، إلا ما كان يبدو منه أول عهده بزواجها وقد تناسته، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له فى هذه الساعة إقبالا منه فى الحديث وتبسطاً فى فنونه قل أن تظفر بمثله فى أوقات إفاقته الكاملة. وإنها لتذكر كم

ارتعبت يوم أدركت أنه يعود من سهرته ثملاً، واستدعت الخمر إلى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلما عاد آلاما لا قبل لها بها. وبمضى الأيام والليالى ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه فى جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترق ملاحظته، ويسترسل فى الحديث، فاستأنست إليه واطمأنت وإن لم تنس أن تضرع إلى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه. ولكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه، وكم عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه، وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام، ولكنها دفنت أفكارها فى أعماق نفسها، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه. أما السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة - فى جلسته هذه - لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه إلى نفسه، ويطبق شفتيه، ويسترق إلى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحق أن سهرته لم تكن تنتهى بعودته إلى بيته، ولكنها تواصل حياتها فى ذكرياته، وفى قلبه الذى يجذبها إليه بقوة نهم إلى مسرات الحياة لا يروى، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع فى سماء حياته حينًا من بعد حين، وما برحت تطن فى أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التى تجود قريحته بدورها إذا هزَّه السكر والطرب، وهذه المُلح خاصة يراجعها فى عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو، ويتذكر أثرها فى النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس، ولا عجب فإنه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه فى سهرته من الخطورة كأنه أمل الحياة المنشودة، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها فى سبيل الفوز بساعات مترعة باشراب والضحك والغناء والعشق

يقضيها بين صحبه وخلصائه، وبين هذا وذاك تسجع فى باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردد فى المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه: «آه. . الله أكبر»، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة ليسمع الحامولى أو عثمان أو المنيلاوى حيثما تكون مغانيهم، حتى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية كما تأوى البلابل إلى شجرة مورقة، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوِّج حجَّة فى السمع والطرب، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الرأس واليدان، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى، مثل: «وليه بقى تلاويعك وهجرك» أو «ياما بكره نعرف. . وبعده نشوف» أو «اسمع بقى وتعالى لما أقول لك» وكان حسبه أن تهفو إليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كى تهيج موطن السكر من نفسه فيهز رأسه طربًا وترف على شفتيه ابتسامة أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنمًا إذا كان إلى نفسه خاليًا، ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردًا يجذبه لذاته فحسب، ولكنه كان زهرة فى طاقة يحلو بها وتحلو به ومرحبًا بين الصديق الصافى والحبيب الوفى والشراب المعتق والملحة العذبة، أما أن يصفو له وحده ـ كما يتلقى فى البيوت عن الفونوغراف ـ فهو جميل حبيب بلا شك، ولكنه غاب عن جوِّه وبيئته وملابساته، وهيهات أن يقنع به القلب، إنه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس، وأن يسابق الترديد بالنهل من كأس مترعة، ويرى أثر التطريب فى وجه الصديق وعين الحبيب، ثم يتعاونون جميعًا على التهليل والتكبير. بيد أن السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات، فمن مزاياها أيضًا أنها تهيئه فى أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذى تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدى رجل حلو المعشر يتبسط معها فى الحديث ويفضى إليها بما فى طويته

على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضًا. وهكذا راح يحدثها عن شئون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التى تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون فى المدينة كالجراد ويعيثون فى الأرض الفساد. والحق أنه كان يحنق على الاستراليين لسبب خاص به وهو أنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب فى الأزبكية فارتد عنها مغلوبًا على أمره - إلا فى القليل النادر من مختلس الفرص - لأنه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارًا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والإهانة عليهم بغير رادع. ثم مضى يسأل عن حال «الأولاد» كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى:

- وكمال؟! إياك وأن تتسترى على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذى تتستر عليه. حقًا فيما لا خطر له من اللعب البرىء، وإن كان السيد لا يعترف ببراءة أى لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخاشع:

- إنه يلتزم أوامر أبيه.

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة، ثم تراجع مؤشر ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنه كان يومًا حافلا، ولما كان فى حال لا يستحب معها كتمان شىء مما يطفو على سطح الوعى فقد قال وكأنه يخاطب نفسه:

- يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين! أما علمت بما فعل؟.. أبى أن يعتلى عرش أبيه المتوفى فى ظل الإنجليز.

ومع أن المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس إلا أنها كانت

تسمع اسم ابنه لأول مرة، ولم تجد ما تقول ولكنها ـ مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلم ـ كانت تخاف ألا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت:

ـ رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيد قائلا:

ـ وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدا، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل فى موكبه من قصر البستان إلى سراى عابدين.. وسبحان من له الدوام.

وأصغت أمينة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره فى نفسها أى نبأ يجىء من العالم الخارجى الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا، وسرور يبعثه ما تجد فى حديث بعلها معها عن هذه الشئون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها، إلى ما فى الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجى جهلا تاما، ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدمًا بمقدار ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هى من أعماقها فقالت:

ـ ربنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس.

فهز الرجل رأسه وتمتم قائلا:

ـ متى؟.. متى؟.. علم هذا عند ربى.. ما نقرأ فى الجرائد إلا عن انتصارات الإنجليز، فهل ينتصرون حقا أو ينتصر الألمان والترك فى النهاية؟ اللهم استجب.

وأغمض الرجل عينيه إعياء، وتثاءب، ثم تمطى وهو يقول:

ـ أخرجى المصباح إلى الصالة.

ونهضت المرأة قائمة وذهبت إلى الخوان فتناولت المصباح ومضت إلى الباب، وقبل أن تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت:

ـ صحة وعافية..

-٣-

وفى هدوء الصباح الباكر ، وذيول الفجر لا تزال ناشبة فى أسهم الضياء ، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء فى ضربات متتابعة كدوى الطبل ، وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة . فتوضأت وصلّت ثم نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفى - امرأة فى الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت إليه بعد طلاق - وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على إعداد الفطور . وكان للبيت فناء متسع ، فى أقصاه إلى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مذ دبت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من إدخال مواسير المياه ، وفى أقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن فى إحداهما واستعملت بالتالى مطبخًا ، وأعدت الأخرى مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، إلى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلع إليها القلوب الهاشة لأفراح الحياة ، وتتحلب الأفواه لألوان الطعام الشهية التى تقدمها موسمًا بعد موسم ككخشاف رمضان وقطائفه ، وكعك عيد الفطر وفطائره ، وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة ، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح فى أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة فى السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره . وإذا كانت أمينة تشعر بأنها فى أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه شيئا ، فهى فى هذا المكان ملكة لا شريك لها فى ملكها ، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وحطب فى الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها ، والكانون الذى يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بألسنة اللهب بإشارة منها . وهى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع

والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفضل بإطرائها إلا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه، وأم حنفى كانت اليد اليمنى فى هذه المملكة الصغيرة، سواء تصدت للإدارة والعمل أم تخلَّت عن مكانها لإحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت إشرافها، وهى امرأة بدينة فى غير تنسيق ولا تفصيل، نما لحمها نموا سخيا فراعى فى نموه السمنة فحسب وأهمل اعتبارات الجمال، بيد أنها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة فى ذاتها الجمال كل الجمال، ولا عجب فقد كان كل عمل لها فى البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس إلى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة ـ أو بالأحرى إناثها ـ بما تعد لهن من «بلابيع» سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون، ومع أن أثر البلابيع لم يكن ناجعا دائمًا إلا أنه برهن على جدارته فى أكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال وأحلام. فليس عجيبًا بعد هذا أن تسمن أم حنفى، على أن سمنتها لم تقلل من نشاطها، فما أن أيقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل، وخفَّت إلى «ماجور» العجين. وتعالى صوت العجين الذى يؤدى وظيفة جرس المنبه فى هذا البيت، فترامى إلى الأبناء فى الدور الأول، ثم تصاعد إلى الأب فى الدور الأعلى، منذرًا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد أزف. وتقلب السيد أحمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذى أزعج منامه، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم أنه يجب أن يستيقظ، وتلقى أول إحساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة إرادته وجلس فى فراشه وإن كانت تغلبه الرغبة فى معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار. فهو يستيقظ فى هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثم له فى القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهذا كان وقت استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعا، يغادر الفراش مترنحا من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقًّا فى الدماغ والجفون.

وتوالت دقات العجين على رءوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمى، وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفًا على كتب القانون، فإذا استيقظ فأول إحساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا: «مريم»، ولو أذعن لسلطان الإغراء للبث تحت الغطاء طويلا، خاليا إلى الخيال الزائر الذى جاء يصحبه بألطف الهوى، فيرنو إليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار، ويتدانى إليه بجسارة لا تتأتى فى غير هذا الرقاد الدافىء فى مطلع الصباح، ولكنه كعادته أجَّل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس فى فراشه، ثم مد بصره إلى أخيه النائم فى الفراش الذى يليه وهتف:

ـ ياسين.. ياسين.. اصح.

انقطع شخير الشاب، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه:

ـ صاح.. استيقظت قبلك.

فانتظر فهمى مبتسمًا حتى عاود الآخر شخيره فصاح به:

ـ اصح..

فتقلب ياسين فى فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطيبة تنطق بالتذمر: «أف.. كيف طلع الصباح بهذه السرعة!.. لماذا لا ننام حتى نشبع.. النظام.. دائمًا النظام.. كأننا عساكر»، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة إلى الفراش الثالث حيث يغط كمال فى نومه الذى لن ينتزعه منه أحد قبل نصف ساعة فغبطه عليه «يا له من غلام سعيد!». ولما أفاق قليلا تربع على الفراش وأسند رأسه إلى يديه، ورغب فى معابثة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها أحلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ ـ كأبيه ـ على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك فى حساسيته أثرا مما تترك فى صحوه وإن افترت شفتاه عن ابتسامة.

وفى الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة إلى منبه العجين. كانت أشبه الأسرة بأمها فى نشاطها ويقظتها، أما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى كانت تنبعث فى السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها إلى أرض الحجرة فى عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة، فإذا استيقظت وفزعت من النقار لم تنهض، ولكنها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثم دبت الحياة فشملت الدور الأول كله، فتحت النوافذ وتدفق النور إلى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس وأصوات العمال ونداء بائع البليلة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتى النوم والحمام وبدا ياسين فى جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل، وفهمى بطوله الفارع وقدِّه النحيف وكان - فيما عدا نحافته - صورة من أبيه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأمهما فى حجرة الفرن، وكان فى صورتيهما اختلاف قلَّ أن يوجد مثله فى الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفى قسمات وجهها تنافر ملحوظ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء.

ومع أن السيد أحمد كان فى الدور الأعلى بمفرده إلا أن أمينة لم تدعه فى حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنجان مملوءًا حلبة ليغير ريقه عليها، وذهب إلى الحمام فتطاير إلى أنفه عرف البخور الطيب، وألفى على الكرسى ثيابًا نظيفة مرتبة فى عناية، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح - عادة لا ينقطع عنها صيفًا أو شتاء - ثم عاد إلى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا، ثم جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية على مسند الكنبة - فبسطها وأدى فريضة الصبح، صلى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقى به أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذى يواجه به آل بيته، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى ألانها التزلف والتودد والاستغفار. لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس

يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على ألوان الحياة التى يتقلب فيها جميعا، كما يعمل فيتفانى فى عمله، ويصادق فيفرط فى مودته، ويعشق فيذوب فى عشقه، ويسكر فيغرق فى سكره. مخلصًا صادقًا فى كل حال، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى، حتى إذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك فى ذريته وتجارته.

وفرغت الأم من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين إعداد الصينية وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كمالا ما زال يغط فى نومه، فأقبلت عليه باسمة وحطَّت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه، ولم تدعه حتى فارق الفراش. ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم إليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق فى عينيها:

ـ صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقة صبحت على ياسين «ابن» زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمرأة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الأسم. ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى وياسين ـ وياسين خاصة ـ بما يغمرانها به عادة من دعابة. وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شئونهما بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة. وبادرها ياسين قائلا:

ـ كنا نتحدث عنك يا خديجة، وكنا نقول إنه لو كان النساء جميعًا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

فقالت على البداهة:

ـ ولو كان الرجل على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرءوس..

عند ذلك هتفت الأم قائلة:

ـ أعد الفطور يا سادة.

- ٤ -

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال فى أوقات فراغه. وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت، ثم جاء السيد فتصدره متربعا، ودخل الإخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين إلى يمين أبيه، وفهمى إلى يساره، وكمال قبالته. جلس الإخوة فى أدب وخشوع، خافضى الرءوس كأنهم فى صلاة جامعة، يستوى فى هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل أغا. فلم يكن أحد منهم ليجترىء على التحديق فى وجه أبيه. وأكثر من هذا كانوا يتجنبون فى محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها. ولم يكن يجمعهم بأبيهم إلا مجلس الفطور لأنهم يعودون إلى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره إلى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة، ثم لا يعود إليه إلا بعد منتصف الليل، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم فى تحاميها، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم فى جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاذه، ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجىء الأم بصينية الطعام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى إذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا، وربما سأل كمال بغلظة: «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له آمرا: «أرنيهما» فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا، وبدلاً من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا: «إذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما». أو يسأل فهمى قائلا: «أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا؟». ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجيب

بأنه يحفظ دروسه جيدا . والحق أن شطارة الغلام - التى استوجب عليها حنق أبيه - لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه، ولكن السيد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء الأمر الذى لا يطيقه غلام اللعب أحب إليه من الطعام، ولهذا يعلق على إجابة فهمى قائلا بامتعاض : «الأدب مفضل على العلم»، ثم يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدة : «سامع يابن الكلب!» .

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه «قلة»، ووقفت متأهبة لتلبية أية إشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوى امتلأ بالمدمس المقلى بالسمن والبيض، وفى أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة، وفى الطرف الآخر صفَّت أطباق صغيرة بالجبن، والليمون والفلفل المخللين، والشطة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا، حتى مد السيد يده إلى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم : «كلوا»، فامتدت الأيدى إلى الأرغفة فى ترتيب يتبع السن، ياسين ففهمى ثم كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم . ومع أن السيد كان يلتهم طعامه فى وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل فى سرعة وبلا توقف، ومع أنه كان يجمع فى لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة - الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخلل - ثم يأخذ فى طحنها بقوة وسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية، إلا أنهم كانوا يأكلون متمهلين فى أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التأنى والأدب . وكان كمال أشدهم تبرما لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه فى حذر وضيق . مسترقا النظر بين آونة وأخرى إلى المتبقى

من الطعام الذى يتناقص سريعا، وكلما تناقص اشتد قلقه، وانتظر فى جزع أن يصدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه فى الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام - وما يتهدده هو بالتالى - من ناحية أخويه أشد وأنكى، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع، أما أخواه فكانا يبدءان المعركة حقًا عقب جلاء السيد عن السفرة، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شىء يؤكل، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائمًا ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين، يدًا للطبق الكبير، ويدًا للأطباق الصغيرة، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ إلى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد فى مثل هذه الحال، وهى أن يعطس فى الطبق عامدًا متعمدًا، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظرا إليه حانقين، ثم غادرا المائدة وهما غارقين فى الضحك، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا فى الميدان.

وعاد السيد إلى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئات بقليل من اللبن وقدمته له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح، وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها - كزيت السمك، والجوز واللوز والبندق المسكَّرة - رعاية لصحة بدنه الضخم، وتعويضًا له عما تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية «لعبا» و«تضييع وقت» لا يجملان بمثله. وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فوائده الأخرى - فجرَّبه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميَّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء، فنفر من أعراضه تلك التى تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج فى النفوس ووثبات المزاح والقهقهة، ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع

نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمى بائع الكسكسى عند مطلع الصالحية بالصاغة، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان، ولم يكن السيد من مدمنى المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة إذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم. فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض إلى المرآة وراح يرتدى ملابسه التى قدمتها إليه أمينة قطعة قطعة، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحصة، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتى رأسه، ثم سوى شاربه وفتله، وتفرس فى هيئة وجهه ثم عطفه رويدا إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثم إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتى إذا ارتاح إلى منظره مد يده إلى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التى عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانه ومنديله، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا. ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا، وإذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث فى قلبه ـ مع الحب ـ الإجلال والخوف. إلا أن انتشاره فى هذه الساعة من الصباح كان إيذانا بذهاب السيد، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهى تنفك عن يديه وقدميه، ويعلم كلٌ بأنه سيسترد حريته عما قليل فى الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر. كان ياسين وفهمى قد فرغا من ارتداء ملابسهما، أما كمال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته فى محاكاة حركاته التى يختلس النظر إليها من زيق الباب الموارب، فوقف أمام المرآة ينظر إلى صورته بإمعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يغلظ نبرات صوته «زجاجة الكولونيا يا أمينة»، وكان يعلم أنها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك إلا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة، وراح يستعرض وجهه فى المرآة من جانبه الأيمن إلى الأيسر، ثم مضى يسوى شاربه الوهمى ويفتل طرفيه، ثم تحول عن المرآة

وتجشأ، ونظر صوب أمه، ولما لم يجد منها إلا الضحك قال لها محتجا: «لماذا لا تقولين لى صحة وعافية؟». فغمغمت المرأة ضاحكة: «صحة وعافية يا سيدى»، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه.

وبادرت الأم والفتاتان إلى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الأسرة فى الطريق، وبدا السيد وهو يسير فى تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى، فأتبعنه أعينا مترعة بالحب والزهو، وتلاه فهمى فى مشيته المتعجلة، ثم ياسين فى جسم الثور وأناقة الطاووس، وأخيرا ظهر كمال فلم يكد يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره إلى الشباك الذى يعلم أن أمه وشقيقتيه مستخفيات وراءه، وابتسم، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه منقبا فى الأرض عن زلطة يركلها.

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم، بيد أن إشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شر حاسد إذا حسد» حتى يغيبوا عن عينيها.

- ٥ -

وغادرت الأم المشربية، وتبعتها خديجة، على حين تلكأت عائشة حتى خلا لها الجو فانتقلت إلى جانب المشربية المطل على بين القصرين ومدت بصرها من ثقوب الشباك فى اهتمام ولهفة. بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتيها أنها تنتظر. ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا فى طريقه إلى قسم الجمالية، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية فى عجلة إلى حجرة الاستقبال، واتجهت إلى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه

وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معًا، ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه فى حذر دون أن يرفع رأسه ـ فلم يكن أحد يرفع رأسه فى مصر وقتذاك ـ فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة إشراقة موردة بالحياء فتنهدت . . ثم أغلقت النافذة وهى تشد عليها بعصبية ـ كأنها تخفى آثار جريمة دامية ـ وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدة الانفعال، فأسلمت نفسها إلى مقعد وأسندت رأسها إلى يدها وساحت فى جو مشاعرها اللانهائى. لم تكن سعادة خالصة، ولم يكن خوفًا خالصا، كان قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة، إذا استنامت إلى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذرة متوعدة فلا تدرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتمادى فى مطاوعة قلبها. كلا الحب والخوف شديد، ولبثت فى تهويمها كثيرًا أو قليلا، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب، ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام، وذكرت ـ كما يلذ لها أن تذكر دائما ـ كيف كان تنفض الستارة المسدلة على النافذة يومًا فلاحت منها نظرة إلى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع إلى وجهها فى دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجعت فيما يشبه الذعر، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك فى مخيلتها أثرًا باقيًا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال، فظل يتخايل لعينيها طويلا، وفى نفس الساعة من اليوم التالى ـ والأيام التالية ـ راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها، ولمست فى فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه إلى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة، وقلبها المشبوب ـ الذى يتمطى مستيقظًا لأول مرة ـ ينتظر هذه اللحظة فى لهفة ويذوقها فى سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم، حتى دار الشهر دورته وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة الموارية متعمدة ـ هذه المرة ـ أن ترى، وهكذا يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة ـ جنونية ـ وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث

ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معًا، كأنها تعلن حبها له، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به.

* * *

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكره الحلم فى ظل سلام، ثم أفاقت من حلمها، وصممت على أن تتحامى الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارا للطمأنينة: «لم تزلزل الأرض ومر كل شىء بسلام، لم يرنى أحد ولن يرانى أحد، ثم إنى لم أقترف إثما!» ونهضت قائمة، ولكى توهم نفسها بخلو البال ترنمت ـ وهى تغادر الحجرة ـ بصوت عذب: «يا ابو الشريط الأحمر يا للى أسرتنى ارحم ذلى»، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهى تزعق فى تهكم:

ـ يا ست منيرة يا مهدية، تفضلى، أعدت لك خادمتك السفرة.

وأثابها صوت أختها إلى نفسها تمامًا فيما يشبه الرجَّة فهوت من عالم المثال إلى عالم الواقع مرتعبة بعض الشىء لسبب غير ظاهر ـ ما دام كل شىء قد مر بسلام كما قالت لنفسها ـ ولكن اعتراض صوت أختها ـ بالذات ـ لغنائها وخواطرها أرعبها، ربما لأن خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد، بيد أنها طاردت هذا القلق الطارىء وأجابتها بضحكة مقتضبة، ثم جرت إلى حجرة الطعام فوجدت السماط معدًا حقًا وأمها مقبلة بالصينية، وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها:

ـ تتلكئين بعيدًا حتى أعد كل شىء وحدى.. كفاية لنا الغناء..

ومع أنها كانت تتلطف معها فى الحديث تفاديا من حدة لسانها إلا أن إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة جعلها تتعلق أحيانًا بإغاظتها فقالت مصطنعة الجد:

ـ ألم نتفق على تقسيم العمل بيننا فى البيت؟ فعليك هذا الواجب وعلىَّ الغناء.

فنظرت خديجة إلى أمها وقالت متهكمة وهى تعنى الأخرى :

ـ يمكن ناوية تكون عالمة!

ولم تغضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضًا :

ـ وماله! . . أنا صوتى كالكروان .

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة إلا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق، ولأنها تنفس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت فى تهجم :

ـ اسمعى يا ست هانم . . هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا نفع .

ـ لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا!

ـ طبعًا! . . كنت تغنين وأرد عليك، تقولين يا بو الشريط الاحمر يا للى . . فأقول لك أسرتنى ارحم ذلى، ونترك للست «مشيرة إلى أمها» الكنس والمسح والطبخ .

وكانت الأم ـ التى ألفَت هذا النقار ـ قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء :

ـ أمسكا بالله واجلسا لنأكل فطورنا بسلام .

وأقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

ـ أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد . .

فتمتمت الأم فى هدوء :

ـ سامحك الله، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسى نفسك . . «ثم مدت يدها إلى الطبق» . . بسم الله الرحمن الرحيم . .

كانت خديجة فى العشرين من عمرها، فهى كبرى إخوتها فيما عدا ياسين ـ أخاها من الأب ـ الذى ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قوية ممتلئة ـ والفضل لأم حنفى ـ مع ميل إلى القصر، أما وجهها فقد قبس من

قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس إلى القدر الذى يغتفر له، ومهما يكن من شأن هذا الأنف فى وجه الأب الذى يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظًا فقد لعب فى وجه الفتاة دورا مختلفًا.

أما عائشة فكانت فى السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشيقة القد والقوام - وإن عد هذا فى محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفى - ووجه بدرىّ تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصّها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها. وطبيعى أن تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفائقة فى التدبير المنزلى والتطريز ولا نشاطها الدائب الذى لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع إخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها فى كثير من الأحايين. ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء فى النفس، وكفاها أن تروّح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته، وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أمًا بالفطرة عامرة القلب بالحنوّ نحو الأسرة التى لا تعفى أفرادها من مرارة تهكمها، فلم تكن غيرتها إلا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها إلى الحقد أو البغضاء، بيد أن دأبها على السخرية - الذى اقتصر فى الأسرة على الدعابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيَّابة من الدرجة الأولى، لا تقع عيناها من الناس إلا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب إلى القطب أبدا، وإذا توارت المناقص تمحلت فى الكشف عنها وتكبيرها، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم فى محيط أسرتها، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها «الله يا أسيادى» لاستعارتها بعض الأدوات

المنزلية من بيتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتَّاب بين القصرين «شر ما خلق» لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه، وبائع الفول «الأقرع» لصلعه، واللبَّان «الأعور» لضعف بصره، إلى تسميات مخففة بعض الشىء خصَّت بها أسرتها، فأمها «المؤذن» لتبكيرها فى الاستيقاظ، وفهمى «عمود السرير» لنحافته، وعائشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «بمبة كشَّر» لسمنته وأناقته. ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب، فالحق أنها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف، وتجافى عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس يوما بعد يوم، وتبدت هذه الغلظة فى البيت فى معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل فى معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنها بالناس أنهم ملائكة فلم تدر كيف تسىء الظن بأحد، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسىء الظن بالناس جميعا، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها: «من أين تجيئها هذه السمنة المفرطة؟!.. من الوصفات التى تصنعها؟! كلنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام».

لكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع، ولما ضاقت بإلحاح ابنتها قالت: « فلتأكل ما تشاء، الخير كثير، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أى حال». ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها إكراما لستها الطيبة. وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، ولما مرض كمال بالحصبة أبت إلا أن تشاركه فراشه، حتى عائشة نفسها لم تكن

تطيق أن يلم بها أهون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا فى بروده ولا فى رحمته.

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال فى الأسرة. وكان للطعام بينهن - إلى فائدته الغذائية - غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة، فكن يتناولنه فى تؤدة واهتمام، ويبالغن فى سحقه وطحنه، فإذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن، على تفاوت لطاقاتهن، فكانت الأم أسرعهن إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها إلا وهى أطباق مغسولة. ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها فى الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيئ هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها: «كلنا نصوم رمضان إلا أنت، تتظاهرين بالصوم، وتندسين فى حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك». وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يختلين فيها إلى أنفسهن، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة فى الأمور التى يدعو إلى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم إنهماكها فى الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير:

- نينة.. حلمت حلما غريبا..

فقالت الأم قبل أن تزدرد لقمتها مبالغة فى إكرام ابنتها المخيفة:

- خير يا بنتى إن شاء الله.

فقالت خديجة باهتمام مضاعف:

ـ رأيت كأنى أمشى على سور سطح، ربما كان سطح بيتنا أو غيره، وإذ بشخص مجهول يدفعنى فأهوى صارخة.

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها فى اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الأم:

ـ اللهم اجعله خيرا.

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة:

ـ لم أكن أنا الشخص المجهول الذى دفعك.. أليس كذلك؟

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها:

ـ إنه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك «ثم مخاطبة أمها».. هويت صارخة ولكنى لم أرتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد، حملنى وطار.

وتنهدت أمينة فى ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت إليه، وعادت إلى طعامها مبتسمة، ثم قالت:

ـ من يدرى يا خديجة؟.. لعله العريس!

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلا فى هذه الجلسة، وفى إيجاز بالإشارة أشبه، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكربه شىء كما أكربه أمر الزواج، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورا عميقا، بيد أنها أرادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها ـ ولو من نفسها ـ فقالت:

ـ أتظنين الجواد عريسا؟.. لن يكون عريسى إلا حمارا.

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها، ثم خافت أن تسىء خديجة فهم ضحكتها فقالت:

ـ لشد ما تظلمين نفسك يا خديجة!.. ما فيك من شىء يعاب.

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الأم تقول:

ـ أنت فتاة نادرة المثال، من يضارعك فى مهارتك أو نشاطك؟ . . وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟ ماذا تريدين أكثر من هذا؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

ـ ألا يسد هذا طريق الأزواج؟!

فقالت الأم مبتسمة :

ـ كلام فارغ . . ما زلت صغيرة يا بنية .

وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس إلى سن الزواج، وخاطبت أمها قائلة :

ـ لقد تزوجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة .

فقالت الأم التى لم تكن فى الحق دون ابنتها قلقا :

ـ لا يتقدم أمر أو يتأخر إلا بإذن الله . .

وقالت عائشة فى صدق :

ـ ربنا يفرحنا بك قريبًا يا خديجة .

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت إحدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن تزوج الصغرى قبل الكبرى، وتساءلت :

ـ أتودين حقًا أن أتزوج أم تتمنين أن يخلو لك السبيل فتتزوجى؟!

فقالت عائشة ضاحكة :

ـ الاثنين معا . .

ـ ٦ ـ

ولما فرغن من الفطور قالت الأم :

ـ عليك يا عائشة الغسيل اليوم، على خديجة تنظيف البيت، ثم تلحقان بى فى حجرة الفرن .

كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة، ومع أنهما يرضيان بحكمها، وترضى به عائشة بلا مناقشة، إلا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلهذا قالت:

ـ أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستثقلين الغسيل، أما التمحك بالغسيل للبقاء فى الحمام حتى ينتهى العمل فى المطبخ فعذر مرفوض مقدما.

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحمام وهى تدندن فقالت خديجة متهكمة:

ـ يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن فى نفير الفونوغراف فغنى وسمعى الجيران.

وغادرت الأم الحجرة إلى الدهليز ثم إلى السلم ورقته إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة فى غير الأوقات التى يوجد فيها الأب فى البيت، أو التى يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة، وهى السياسة الوحيدة التى تنتهجها إزاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطيق سواها، أما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشىء لم تعرفه، ربما تمنته دون أن تقدر عليه. وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف، وكأنها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحب، تاركة للأب ـ أو لشخصيته التى تسيطر من بعيد ـ تقويم المعوج وإلزام كل حدوده. لهذا لم يضعف النقار السخيف من إعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما، حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها. وكان هذا حريا بأن يمد لها فى أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة

بالداء أشبه، فهى تأبى إلا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هى بالمكنسة فى يد والمنفضة فى يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها، ومن وسوستها تلك أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف فى تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذى يناهز العاشرة إلى ياسين الذى كان ذا ذوقين متناقضين فى العناية بنفسه يتجليان فى تأنقه المفرط فى مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء. وإهماله المعيب لثيابه الداخلية. ومن الطبيعى ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تجده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التى لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها إليه، خلقته بروحها خلقًا جديدًا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التى شيد عليها منذ عهد سحيق. هذه الأقفاص المثبتة فى بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من وضعها، وهذه الأكواخ الخشبية يقوقىء الدجاج فى مسارحها من تركيبها، وكم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق إليها الدجاج وراء ديكها، وتنهال مناقيرها على الحب فى سرعة وانتظام كإبر آلة الخياطة، مخلفة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ. وكم ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها رانية إليها بأعين دقيقة صافية، مستطلعة متسائلة، ناقة مقوقئة، فى مودة متبادلة ينز لها قلبها الحنون. أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا، فهى تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثر لها، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحيانا الجماد نفسه. وعندها بمنزلة اليقين

أن هذه الكائنات تسبِّح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب، فعالمها بأرضه وسمائه، حيوانه ونباته، عالم حى عاقل. ثم لا تقتصر مزاياه على نغمة الحياة فيكملها بالعبادة. لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر معاتيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو بآخر، هذا لأنها معمرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها، وإذا دعتها الظروف إلى الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق، ثم تسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر، وتذبحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنَّان وأوسع به على عباده. أما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبى المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن، بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة السور ونمت نموا بهيجا، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة، فاستدعت نجاراً فأقامها، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ثم أنشبت سيقانها فى السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع فى أرجائها عرف طيب ساحر. هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام، وبستانه المعروش، هو دنياها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير فى هذا العالم الكبير الذى لا تعرف عنه شيئا، وكشأنها فى مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته، وسقت زرعه، وأطعمت الدجاج والحمام، ثم تملَّت طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين، ثم ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحده حدود.

كم تروعها المآذن التى تنطلق انطلاقا ذا إيحاء عميق، تارة عن قرب

حتى لترى مصابيحها وهلالها فى وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر، وثالثة من أفق سحيق فتتراءى أطيافا كمآذن القلعة والرفاعى، وتقلب وجهها فيها بولاء وافتنان، وحب وإيمان، وشكر ورجاء، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين، أحبها ـ لحب صاحبها ـ إلى نفسها، فتنفض نظرتها حنانا وأشواقا، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من مثواه. وتنهدت نهدة مسموعة، استردتها من استغراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلى بالنظر إلى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جميعا وهو عالم الغيب، والمجهول بالقياس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخمة التى تترامى إليها أصواتها. ترى ما هذه الدنيا التى لم تر منها إلا المآذن والأسطح القريبة؟! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت لا تفارقه إلا مرات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفش. وعند كل زيارة يصطحبها السيد فى حنطور لأنه لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن ساخطة ولا متذمرة، إنها أبعد ما تكون عن هذا. بيد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام. ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمى فى هذه اللحظة؟.. وأين مدرسة خليل أغا التى يؤكد كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين؟.. وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة: «اللهم أسألك الرعاية لسيدى وأبنائى، وأمى ويس، والناس جميعا مسلمين ونصارى، حتى الإنجليز يا ربى وأن تخرجهم من ديارنا إكراما لفهمى الذى لا يحبهم».